الفصل السابع والعشرون

المرأة

أشبعنا الكلام في مواضعه من هذا الكتاب في وجوب تعليم المرأة، وتهذيبها، وتثقيف أخلاقها، بحيث لا تبقى متأخرة عن الرجل، فلا يبقي نصف المجتمع الإنساني جاهلا منحطا، وتبقي فائدة تعليم النصف الآخر ناقصة.

وفي ظننا أن كتاب العلم والتربية لا يجب أن يخلو عن فصل خاص نضمنه شذورا مما قيل في المرأة؛ بيانا لمقامها في هيئة الاجتماع، وتأثيرها في العائلة، وإظهارا للشأن العظيم الذي لها. فإنها لما كانت أول من يحملنا في الأحشاء، ويفتح أعيننا للنور، ويقف عند وسادتنا ساعة الضعف والعلة، ويغمض أجفاننا للموت، وكانت شريكتنا في كل سراءً وضراء. كانت ولا مراء ذات شأن خطير لا ينبغي أن نتجاهله ونغض الطرف عنه.

وقد جاء في قول أحد الحكماء :"أن التي تهز السرير ليمينها تهز الأرض بيسارها". وهو قول إذا تدبرته وجدته بالغا حد الإصابة، فإن نهوض شعب، أو سقوط أمة متوقف أمرهما علي حسن تربية المرأة، أو إفسادها. والحقيقة التي لا مراء فيها ولا إنكار لها أن المرأة الحكيمة تعمر بيتها، والمرأة الجاهلة تجر إليه الخراب. فمن هي المرأة التي لها مثل هذا الشأن العظيم في مجتمعنا الإنساني، ومن هي هذه المرأة التي يصحبنا تأثيرها فينا منذ الساعة التي نخرج فيها من ظلمات الأحشاء الوالدية إلى الساعة التي نتوارى فيها في ظلمات القبور؟.

انظر إلى هذه الفتاة التي تلعب في فناء دارك قافزة من مكان إلى مكان،

مشتغلة بكل ما يهم وما لا يهم، ضاحكة تارة، وباكية أخري. أو جالسة علي القعد تخلع عن "عروستها" ثوبا وتلبسها ثوبا، وأمارات الاهتمام بأدبها علي محياها، وسمات الاشتغال ظاهرة علي جبينها. هذه الفتاة الصغيرة التي لا شأن لها إلا ما لكل ولد من الشأن هي امرأة الغد التي يطلب منها أن تكون زوجة، وأمًا، ورفيقة، ومربية، وشريكة في الحياة، وأمينة علي الأسرار، ومعزية وقت المصاب. والتي يجب عليها أن تبتسم للرجل وقت فرحه، وتمسح دمعته وقت حزنه، وتسهر علي أولاده، وتبث فيهم العواطف الشريفة والشعائر السامية، وتعرفهم واجباتهم، وتدلهم علي حقوقهم، وتنير أبصارهم وبصائرهم، وتفتح أعينهم للخير، وتبعدهم عن طريق الشر، وتنفخ فيهم روح الفضائل والكمالات. فهذه الفتاة التي لا تعبأ الآن بها سوف ترد إليك متى بلغت سن المرأة كل ما استودعنا إياه. إن عملا فعلما، وأن جهلا فجهلا. وبمعني أعم وأوضح إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا.

ونحن نحب أن نستشهد بأقوال بعض العلماء والفلاسفة الذين وقفوا أقلامهم للبحث في حالة المرأة. وما لها من الشأن، والتأثير في المجتمع الإنساني. وأول ما نورده من هذا القبيل كلام ورد في كتاب عنوانه "المرأة – الرجل" وضعه المرحوم إسكندر بن إسكندر دوماس الكاتب الفيلسوف الفرنسي. فقد جاء فيه ما تعريبه:

"فلنجهد الآن في الإحاطة بهذا الموضوع المهم من وجه الاختصار والجد. فهو كما لا نجهله موضوع كثير الأهمية، بل هو أكبر المواضيع الحالية أهمية وشأنا، فإن الإنسانية إفرادية كانت، أو إجمالية لا نزال نضطرب رهبة أمام ذلك القد الأهيف الهائل؛ أعني به المرأة التي نولد منها دائما، ونموت بها غالبا. فهي تبعث الحياة إلى المرء طفلا، ولكنها تأخذها منه رجلا. تلك حقيقة لا يختلف

فيها اثنان، فإننا نسمع بها كل يوم، ثم نراها رأي العين، ونشعر بها حتى لم يبقي فيها من ريب.

ولقد زعم البعض أن الشرقيين فازوا وسهلوا صعوبة الأمر بسجنهم المرأة، والإقفال عليها. فبالغرور يظنون بما يفعلون أنهم يضعفون قوة العدو، ولكنهم يجمعون قواه لو يعلمون. وبدلا من أن يتركوا الزوبعة تلاطم أقطار الدنيا تراهم يحصرونها معهم في مجال ضيق، فتصب عليهم محنها، وتلعب بهم دون رحمة ولا إشفاق وهم لا يشعرون. ويجهلون، بل نكاد جميعنا نجهل أن الواسطة الوحيدة لإضعاف امرأة إنما هي منحها الحرية، فإذا شئت أن تكون سيدها ومالك أمرها فأكسر قيود عبوديتها، فاستعباد المرأة هو الدافع لها، وهو ضمانها، وقوتها، وسلاحها. والمرأة الحرة امرأة ميتة في عجزها عن الإضرار، حية في أنها حرة"

ولعمري أن الذين ينكرون علي المرأة كل حق، ويحرمونها كل مقام في المجتمع الإنساني بحرمانهم إياها العلم، والتربية، والحرية ينبغي لهم أن يتدبروا هذا الكلام، وينظروا إليه بعين التروي، ثم يحكموا بعد ذلك إذا كانوا مصيبين فيما يفعلون.

ومما يحسن إيراده هنا من أقوال كتاب فرنسا بشأن المرأة وتعريفها قول الكاتب الشهير (أميل دي جيرا ردين)؛ إذ قال موجها الكلام إلى إسكندر دوماس الذي كان يناظره في موضوع المرأة ما خلاصته:

"وما المرأة أنه يكفينا في تعريفها أن نقول: أنها الأم، والأخت، والابنة، والحليلة. وأننا إذا كنا ذوي حياة أفليس أن حياتنا من عندها؟، وإن كنا نفكر أفليس بواسطتها؟. وإن كنا نخلص في أيام الصغر من كل أخطار الموت التي تحدق بنا فنصير رجالا ذوي لب، وذكاء، ومعرفة، وإحساس. أفليس كل ذلك راجعا إليها؟"

ثم قال في موضع آخر يخاطب مناظره: "فأنا أهنئك أيها العزيز دوماس بأنك ارتضيت بأن تكون من صف الذين يعتقدون بأن اليوم الذي تصير فيه المرأة مساوية للرجل مساواة شرعية لهو يوم عظيم للإنسانية، والحضارة، والمدنية. وحينئذ يجري التقدم في مجراه الطبيعي، ويسرع النجاح شاكلهما: وهي العقدة التي ظنت هيئة الاجتماع أن لا حل لها لما مر عليها من السنين، والأعوام. حينئذ يقل الفساد إذا لم نقل يزول. حينئذ يعود علي المرأة كل التبعية من حيث تربية البنين، وصحتهم، وتهذيبهم، وترويض أخلاقهم"

وفي موضع آخر من هذا الكتاب النفيس: "فكم كان في الزمن الماضي عقبات، ومسالك وعرة أخرت سير النجاح، وكانت حائلا دون التقدم والارتقاء، فزالت باعتناق مذهب أو اتباع رأي؟. وكم من العقبات، والموانع ستزول في المستقبل أيضا علي هذا النحو. ولعمري من لا يرى أن هيئة الاجتماع يمكنها دون خطر أن تبقى ساكنة غير متقدمة إلى الأمام.

وكيف تبقى ساكنة، والعلوم، والمعارف تغير في كل يوم، وبدون نهاية حالتها الحاضرة؟. كيف تبقى ساكنة العالم الجديد (عالم كريستوف كولومبوس) غير منفصل عن العالم القديم إلا بمسافة بضعة أيام؟. كيف تبقى ساكنة، والبلاد تتداني ماديا، والرجال تتقارب أدبيا؟. كيف تبقى ساكنة وقد أصبح الغني والفقير في منزلة واحدة تجاه الأعمال. يقلهما واحد، وتنقلهما سفينة واحدة بالسرعة نفسها؟. كيف تبقى ساكنة وأبناؤها يجهدون في الارتقاء بمقدار ما كان أبناء الزمن الماضي يجهدون في أن لا يسقطوا؟. كيف تبقى ساكنة وقد صار معظم القواد من الطبقة الوسطى، والنبلاء المستبدون ينظرون خاسرين؟. كيف تبقى ساكنة وقد صار الأمر في يد الشعب، ولا رأي إلا ما يراه؟ بل كيف تبقى ساكنة ونحن نرى المرأة في البلاد المتمدنة سائرة أمام الجميع تنادي بالحرية،

وتطلب مساواتها بالرجل؟"

ثم قال في موضع آخر: "الشعب ما تريد المرأة أن يكون، فإنها بالعلم الذي تتلقاه ولو بعد حين، وبتربيتها للفتاة منذ المهد، تفتح للعادات والأخلاق الجديدة بابا رحبا. والرعاع الجهلة من كل قوم يتناقصون في كل يوم، ولقد أصبح عددهم أقل كثيرا مما كان في بدء هذا القرن حين كان كثيرون يجهلون القراءة رجالا، ونساء. فالذي تحسن بنا ملاحظته إذًا أنما هو المرأة الراقية سلم الارتقاء، المتممة قتل الهيئة الاجتماعية القديمة لتحيي بموتها مجتمعا جديدا، وهي التي تسترد بهمتها وسعيها المنزلة التي اغتصبها منها الرجل، فأنزلها عنها ظلما واعتداءً"

وهو قول يدل دلالة واضحة علي تأثير المرأة، وعلو منزلتها في المجتمع الإنساني. كما يدل أيضا علي أنها سائرة بسنة الطبيعة في الطريق التي تعيدها إلى المقام الذي أنزلها الرجل عنه بأثرته، وغباوته معا. ونحن وإن كنا قد أطلنا في الاقتطاف من أقوال هذا الكتاب، فأننا نحب أن نأخذ عنه أيضا أقوالا أُخر، حَرِية بالاستبصار؛ لأنها وإن كانت مسطرة بقلم رجل أوروبي عن النساء الأوروبيات، فهي جديرة بالنشر بين صفحات هذا الكتاب؛ للدلالة علي استطاعة المرأة عندنا أن تكون غير ما هي الآن إلا إذا أنكرنا عليها أنها من طينة سواها من نساء الغرب.

ومما نقتطفه من كتاب "مساوية الرجل" للمسيو دي جيرارد ين. كلام أحب صاحبه أن يثبت به ضرورة منح المرأة الحرية التي يتمتع بها الرجل، وأنها قادرة علي القيام بالأعمال التي يقوم الرجل بها، وعلي مساواته في كل أمر. رأيٌ لا نتعرض لتأييده، أو لنقضه. ولسنا نطلب الآن لنسائنا كل ذلك، بل غاية ما نطلبه أن تعطى المرأة المقام الذي يحق لها ويخولها إياه كونها أمنا، وأم أولادنا.

وهذا قول المسيو دي جيراردين:

"أي عمل بعد إلغاء الرقيق يجب أن يفتخر به العالم؟. أليس هو إلغاء الفرق بين الرجل والمرأة؟. أليس إلغاء عدم المساواة والتكافؤ بين عضوين أوجدتهما الطبيعة متساويين أن الحرية التي لا تزال في مهد الطفولية تنمو نموا سريعا؟. ولسوف تقلب نظام الهيئة الاجتماعية، وتبدل الحالة الحاضرة بحالة أخري. وهذا لا خلاص منه ولا مناص. وكيف يمكن اجتنابه ونحن نري المرأة تثبت مساواتها للرجل في المقدرة العقلية بتلقنها نفس الدروس والتعاليم التي يطلبها، وبحصولها علي نفس التربية، ومطالعتها لنفس الصحف، والمجلات، والكتب. وتحصيلها نفس الشهادات بعد تأديتها لنفس الامتحانات والفحوص. وبالجملة بسعيها وراء كل ما يسعى إليه الرجل، ووصولها إلي ما يصل إليه؟

ومن كان في ريب مما أقول فليذهب إلى أمريكا. حيث يلقى النساء العالمات، والمكاتبات، والطبيبات، والنائبات، والقاضيات، والمحاميات. حيث النساء يشتغلن بجد ونجاح بكل ما يشتغل به الرجال. حيث جمعيات النساء ترأسها النساء. حيث مدارس الإناث تعطي الشهادات في العلوم العالية، والطب، والشريعة. أو لم تروا أيها القراء كيف أن "مدرسة النساء الطبية" قد أعطت من زمن قريب شهادة في الطب لعشر فتيات بارعات؟ وأنني أذكر لك أيها العزيز دوماس شهادات الرجال العظام في أمريكا بشأن انتخاب النساء في أمور النيابة والقضاء (وأورد شهادات كثيرة يستدل منها علي أن النساء قمن بأعباء هذا الأمر قياما حسنا، مما قام به أكثر الرجال). ومن تلك الأدلة واحد افتتح به رئيس المجلس الأعلى في "ويمنج" شهادته. حيث قال: إنني مع ما كنت أزعمه من عدم إمكان بلوغ المرأة درجة الرجل أري نفسي مضطرا إلى الإقرار بحسب الذمة، والصدق بأن النساء قد قمن بأعباء مناصب المحلفين قياما

أكسبهن ثناء الجمهور، واحترام العقلاء. فلقد أظهرن من الانتباه، والاعتناء، والذكاء، والصبر علي العمل، والسير علي ما يقتضيه الضمير والناموس ما اضطر المعارضين إلى الإذعان.

ومما جاء أيضا في شهادة المحترم كينجمان من رسالة بعث بها من ويمنج إلى جريدة سندي هرالد قوله: "أن نساءنا مهتمات بالأمر اهتمام الرجال أنفسهم، وكلهن يقدمن علي الانتخاب بحرية واستقلال ضمير، ولسن كالرجال عرضه للخروج عن الصواب، والميل مع الهوى.

هذا وأنت تذكر أن رئاسة جمهورية الولايات المتحدة عرضت علي امرأة: هي ميس فكتوريا ودهال. ولم يتلق الناس ذلك بالهزء والسخرية"

ولسنا نزيد القراء شيئا من عندنا، ولا من قول سوانا. فلقد أثبتنا لهم علي ما نظن أن للمرأة تأثيرا عظيما جدا في حالة الشعب. وأن ارتقاء الأمة، أو انحطاطها يكون بقدر ارتقاء المرأة، أو انحطاطها.

ولما كان أكثر ما تقدم لنا من الكلام إجماليا عاما، فقد رأيناه إتماما لواجب الخدمة أن نخص إخواننا المسلمين بكلمة عن المرأة، لا نقصد بها إلا النفع. ونحن لا نشرع في هذا الموضوع قلمنا، بل نتخذ لنا عونا في هذا الموضوع العسير قلم عزتلو الفاضل قاسم بك أمين صاحب كتاب "تحرير المرأة" – وصاحب البيت أدرى بالذي فيه– مقتطفين من هذا الكتاب النفيس شذورا نوجه إليها أنظار قراء كتاب "العلم والتربية" من المسلمين، وعساهم أن ينتبهوا إلى أن الزمن الذي نحن فيه زمن أعطاء كل ذي حق حقه. فحق المرأة أن تكون في المجتمع الإنساني ذات مقام مرتفع، ومنزلة سامية؛ لأنها أم الرجل، وأم أولاده، وشريكته في أطوار حياته، فكما أن له حقوقا ويهضمها لأنه القوي وهي الضعيفة.

وقد يقول بعضهم في الرد علي هذا الكلام أن صاحبي كتاب تحرير المرأة، وكتاب العلم والتربية غير صادقين في ما يقولانه عن احتقار الشرقيين عامة، والمسلمين منهم خاصة شأن المرأة، وجهلهم المقام الواجب لها؛ لأننا نكرم المرأة، ونبالغ في إعزازها، ونطعمها ألذ ما عندنا، ونلبسها أنفس ما تصل إليه أيدينا. علي أن ذلك كله ليس إعطاء المرأة حقها، ولا شيئا من حقها. وليس احتقارها منحصرا في قلة إكرامها، وفي امتهان حرمتها، وإذلالها، والتضييق عليها في أسباب المعيشة. ولكن ثمة أمورا كثيرة نأتيها عن غير اكتراث، وهي كلها احتقار للمرأة، وغض من كرامتها. وإن شئت أن تعلم ما هي فاسمع ما ورد في كتاب تحرير المرأة بقلم رجل مسلم يحترم أمته، ودينه. ولكنه يعلم أن احتقر المرأة يضر بالمجتمع الإنساني ضررا شديدا، ويحط من شأن الوطن والأمة حطا عظيما. وهو قد جمع في الأسطر الآتية كل ما كان من شأنه أن يوقف مجرى تقدم الجنس اللطيف في الإسلام، وذلك يجعل المرأة أمة رقيقة، إقرارا منه بأنه لا يركن إلى أمانتها، ولا يصدق بها. قال:

"ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضمها الرجل، وأخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان، وداس بأرجله علي شخصيتها. عاشت المرأة في انحطاط شديد، أيًّا كان عنوانها في العائلة: زوجة، أو أما، أو بنتا. ليس لها شأن، ولا اعتبار، ولا رأي، خاضعة للرجل لأنه رجل، ولأنها امرأة منتهي شخصها في شخص الرجل، ولم يبق لها من الكون ما يسعها إلا ما استتر من زوايا المنازل. واختصت بالجهل، والتخريب بأستار الظلمات، واستعملها الرجل متاعا للذة. يلهو بها متى أراد. ويقذف بها في الطرق متى شاء له الحرية ولها الرق. له العلوم، ولها الجهل. له العقل، ولها البله. له الضياء والفضاء، ولها الظلمة والسجن. له الأمر والنهي، ولها الطاعة والصبر. له كل شيء في الوجود، وهي بعض ذلك الكل الذي

استولى عليه.

من احتقار الرجل للمرأة أن يملأ بيته بجوار بيض، أو سود. أو بزوجات متعددة يهوى إلى أيهن شاء، منقادا إلى الشهوة، مسوقا بباعث الترف، وحب استيفاء اللذة، غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل، ولا بما أوجبه عليه من العدل فيما يأتي.

من احتقار المرأة أن يطلق الرجل زوجته بلا سبب، من احتقار المرأة أن يقعد الرجل علي مائدة الطعام وحده، ثم تجتمع النساء من أم، وأخت، وزوجة، ويأكلن ما فضل منه.

من احتقار المرأة أن يعين لها محافظا علي عرضها: مثل أغا ،أو مقدم، أو خادم يراقبها ويصحبها أينما تتوجه.

من احتقار المرأة أن يسجنها في منزل، ويفتخر بأنها لا تخرج منه إلا محمولة علي النعش إلى القبر.

من احتقار المرأة أن يعلن الرجال أن النساء لسن محلًا للثقة، والأمانة. كما أن احتقار المرأة يحيل بينها وبين الحياة العامة، والعمل في أي شيء يتعلق بها. فليس لها رأي في الأعمال، ولا فكر في المشارب، ولا ذوق في الفنون، ولا قدم في المنافع العامة، ولا مقام في الاعتقادات الدينية، وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملي"

ذلك بعض ما استلفت نظرنا من كتاب تحرير المرأة. ونحن قد استشهدنا به للدلالة علي أننا لسنا بمنفردين في هذا الرأي، ولأن صاحب هذا القول أحق منا بإيراده.

وقد تقدم لنا في فصل العائلة كلام جهرنا فيه ببيان أضرار الحالة الحاضرة

من انفصال المرأة عن العائلة "فيعيش الرجل في مجلس، والمرأة في مجلس، والأولاد بين المجلسين" ولم نجسر علي رأينا في أمر الحجاب لدقة هذا الموضوع، وتفاديا من أن نتهم بالتعرض لما لا يعنينا، ولا هو من شأننا في شيء. ولكننا نحمد الله على أن العالم المسلم صاحب كتاب "تحرير المرأة" قد سهل لنا هذا السبيل بقضائه علي الحجاب كما هو الآن، قضاء مبرما مثبتا مخالفته للشرع الإسلامي مخالفة تامة. ونحن نقتطف شذورا من كلامه في هذا المعني للدلالة علي أضرار الحجاب المادية، مع غض النظر عن أضراره الأدبية التي لا يحيط بها وصف، وأقل ما توصف به أن هذا الحجاب من جملة الأسباب في سقوط التربية عندنا، بل في انحطاط الشرق إلى الدرجة التي انحط إليها، وهذا ما اقتطفناه من كتاب "تحرير المرأة"، في هذا المعني نورده تبصره وذكري لقوم يعقلون. وهو:

"خولت الشريعة للمرأة ما للرجل من الحقوق، وألقت عليها تبعة أعمالها المدنية، والجنائية. فللمرأة الحق في إدارة أموالها، والتصرف فيها بنفسها. فكيف يمكن لرجل أن يتعاقد معها من غير أن يراها، ويتحقق شخصيتها؟

ومن غريب وسائل التحقق أن تحضر المرأة مغلفة من رأسها إلى قدميها، أو تقف من وراء ستار، أو باب. ويقال للرجل ها هي فلانة التي تريد أن تبيعك دارها، وتقيمك وكيلا في زواجها مثلا. فتقول المرأة بعت، أو وكلت، ويكتفي بشهادة شاهدين من الأقارب، أو الأجانب علي أنها هي التي باعت أو وكلت. والحال أنه ليس في هذه الأعمال ضمانة يطمئن لها أحد. وكثيرا ما أظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير في مثل هذه الأحوال. فكم رأينا أن امرأة تزوجت بغير علمها، وأجرت أملاكها بدون شعورها. بل تجردت من كل ما تملكه علي جهل منها. وذلك كله ناشئ من تحجبها، وقيام الرجل دونها، يحولون بينها وبين من يعاملها.

كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة، أو تجارة للتعيش منها إن كانت فقيرة؟. كيف يمكن لخادمة محجوبة أن تقوم بخدمة بمنزل فيه رجال؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة أن تدير تجارتها بين الرجال؟. كيف يتسنى لزارعة محجوبة أن تفلح أرضها، وتحصد زرعها. كيف يمكن لعاملة محجوبة أن تباشر عملها إذا أجرت نفسها للعمل في بناء بيت، أو نحوه.

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه النوع الإنساني ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه في الوصول إليه. ووضع للتصرف فيه حدودا تتبعها حقوق، وسَوَى في التزام الحدود، والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع، ولم يقسم الكون بينهما قسمة إفراز، ولم يجعل جانبا من الأرض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن، وجانبا للرجال يعملون فيه في عزلة عن النساء، بل جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين، شائعا تحت سلطة قواهما بلا تمييز. فكيف يمكن مع هذا لامرأة أن تتمتع بما شاء الله أن تتمتع به، مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والقوى، وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها، وبين الرجال إذا حظر عليها أن تقع تحت أعين الرجال إلا من كان من محارمها. لا ريب أن هذا مما لم يسمح به الشرع، ولن يسمح به العقل. لهذا رأينا أن الضرورة أحالت الثبات علي هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ،كما نشاهده في الخادمات، والعاملات، وسكان القرى، حتى من أهل الطبقة الوسطى، بل وبعض أهل الطبقة العليا من أهل البادية والقرى. والكل مسلمون، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه في أهل المدن.

إذا وقفت المرأة في بعض مواقف القضاء خصما، أو شاهدا كيف يسوغ لها ستر وجهها. مضت سنون، والخصوم، وقضاة الحاكم أنفسهم غافلون عما يهم في هذه المسألة، متساهلون في رعاية الواجب فيها. فهم يقبلون أن تحضر

المرأة أمامهم مستترة الوجه وهي مدعية أو مدعي عليها أو شاهدة وذلك منهم استسلاما للعوائد. وليس بخاف ما في هذا التسامح من الضرر الذي يصعب استمراره فيما أظن. ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر ولما في ذلك من سهولة الغش. كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه أن يعرف تلك التي تخاصمه وله في ذلك فوائد كثيرة من أهمها صحة التمسك بقولها. ولا أظن انه يسوغ للقاضي أن يحكم علي شخص مستتر الوجه ولا أن يحكم له. ولا أظن أنه يسوغ له أن يسمع شاهدا كذلك.

بل أقول أن أول واجب عليه أن يتعرف وجه الشاهد والخصم خصوصا في الجنايات. وإلا فأي معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص، وسنه، وصناعته، ومولده؟. وماذا تفيد معرفة هذه الأمور كلها إذا لم يكن معروفا بشخصه؟.

والحكمة في أن الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة كما مر ظاهره. وهي تمكن القاضي من التفرس في الحركات التي تبدو علي الوجه، والعلامات التي تظهر عليه، فيقدر الشهادة بذلك قدرها. لا ريب أن ما ذكرناه من مضار التحجب يندرج في حكمه إباحة الشرع الإسلامي لكشف المرأة وجهها وكفيها، ونحن لا نريد أكثر من ذلك.

واتفق أئمة المذاهب أيضا علي أنه يجوز للخاطب أن ينظر إلى المرأة التي يريد أن يتزوجها. بل قالوا بندبه عملا بما روي عن النبي صلي الله عليه وسلم حيث قال لأحد الأنصار –وكان قد خطب امرأة– "أنظرت إليها". قال: لا. قال: "انظر إليهافإنه أحرى أن يؤدم بينكما"

هذه هي نصوص القرآن، وروايات الأحاديث، وأقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية في أن الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها، وذلك

للحكم التي لا يصعب إدراكها علي كل من عقل.

هذا حكم الشريعة الإسلامية، كله يسر لا عسر فيه لا علي النساء ولا علي الرجال. ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفي ما فيه من الحرج عليهما في المعاملات، والمشقة في أداء كل منهما ما كلف به من الأعمال سواء كان تكليفا شرعيا، أو تكليفا قضت به ضرورة المعاش.

أما دعوى أن ذلك من آداب المرأة فلا أخالها صحيحة؛ لأنه لا أصل يمكن أن ترجع إليه هذه الدعوى. وأي علاقة بين الأدب وبين كشف الوجه وستره؟ وعلي أي قاعدة بُني الفرق بين الرجل والمرأة؟. أليس الأدب في الحقيقة واحدا بالنسبة للرجال وللنساء، وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الأشكال، والملابس. وجاء في موضع آخر

"علي أن البرقع، والنقاب مما يزيد في خوف الفتنه. لأن هذا النقاب الأبيض الرقيق الذي تبدو من ورائه المحاسن وتختفي من خلفه العيوب."

والبرقع الذي يختفي تحته طرف الأنف، والفم، والشدقان. ويظهر منه الجبين، والحواجب، والعيون، والخدود، والأصداغ، وصفحات العنق. هذان الساتران يعدان في الحقيقة من الزينة التي تحث رغبة الناظر، وتحمله على اكتشاف قليل خفى بعد الافتنان بكثير ظهر. ولو أن المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلقها ما يرد في الغالب البصر عنها.

ليست أسباب الفتنه ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة، بل من أهم أسبابها ما يصدر عنها من الحركات في أثناء مشيها، وما يبدو من الأفاعيل التي ترشد عما في نفسها. والنقاب، والبرقع من أشد أعوان المرأة علي إظهار ما تظهر، وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة. لأنهما يخفيان شخصيتها، فلا تخاف أن

يعرفها قريب، أو بعيد، فيقول فلانة، أو بنت فلان، أو زوجة فلان كانت تفعل كذا. فهي تأتي كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية ذاك البرقع، وهذا النقاب. أما لو كان وجهها مكشوفا فإن نسبتها إلى عائلتها، أو شرفها في نفسها يشعرانها الحياء والخجل، ويمنعانها من إبداء حركة، أو عما يتوهم منه أدنى رغبة منها في استلفات النظر إليها.

"والحق أن الانتقاب، والتبرقع ليسا من المشروعات الإسلامية. لا للتعبد، ولا للأدب، بل هما من العادات القديمة السابقة علي الإسلام، والباقية بعده. ويدلنا علي ذلك أن هذه العادة ليست معروفة في كثير من البلاد الإسلامية، وأنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التي لم تتدين بدين الإسلام"

وفي هذا القدر كفاية للدلالة أولا علي سمو مقام المرأة، وعظم شأنها في المجتمع الإنساني. وثانيا علي وجوب تعليمها، وتربيتها حتى إذا أطلقت حريتها لا ينجم عن تحريرها ما يعود بالضرر، ويدعو إلى الندم.

ونحن نختتم هذا الفصل بأبيات رائقة تثبت أن المرأة كالعادة المرنة يمكن جعلها مظهرا للخير. وللشر. وهو قول لا شك في صوابه، فكم رأينا نساء وجدن لكل عمل جميل قد انقلبن بسبب الرجال إلى شياطين؟ وكم رأينا من نساء الشر من عدن إلى سبيل الهداية، والخير بسبب الرجال. ورحم الله القائل:

حسب المرأة قوم آفة ... من يدانيها من الناس هلك

ورآها غيرهم أمنية ... فاز بالنعمة فيها من ملك

فمتى معشر لو نبذن ... وظلام الليل مشتد الحلك

وتمنى غيرهم لو وضعت ... في جبين الليث، أو قلب الفلك

وصـــواب القـــول لا يجهلـــه حـــاكم في مســـلك الحـــق ســـلك

إنمـــا المـــرأة مـــرآة بهـــا كـــل مـــا تنظـــره منـــك ولـــك

فهـــي شـــيطان إذا أفســـدتها وإذا أصـــلحتها فهـــي ملـــك